المنهج التأريخي

عند ابن الشعار الموصلي(ت ٦٥٤هـ)
في كتابه(قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)

الدكتورة
حنان عبدالخالق علي السبعاوي

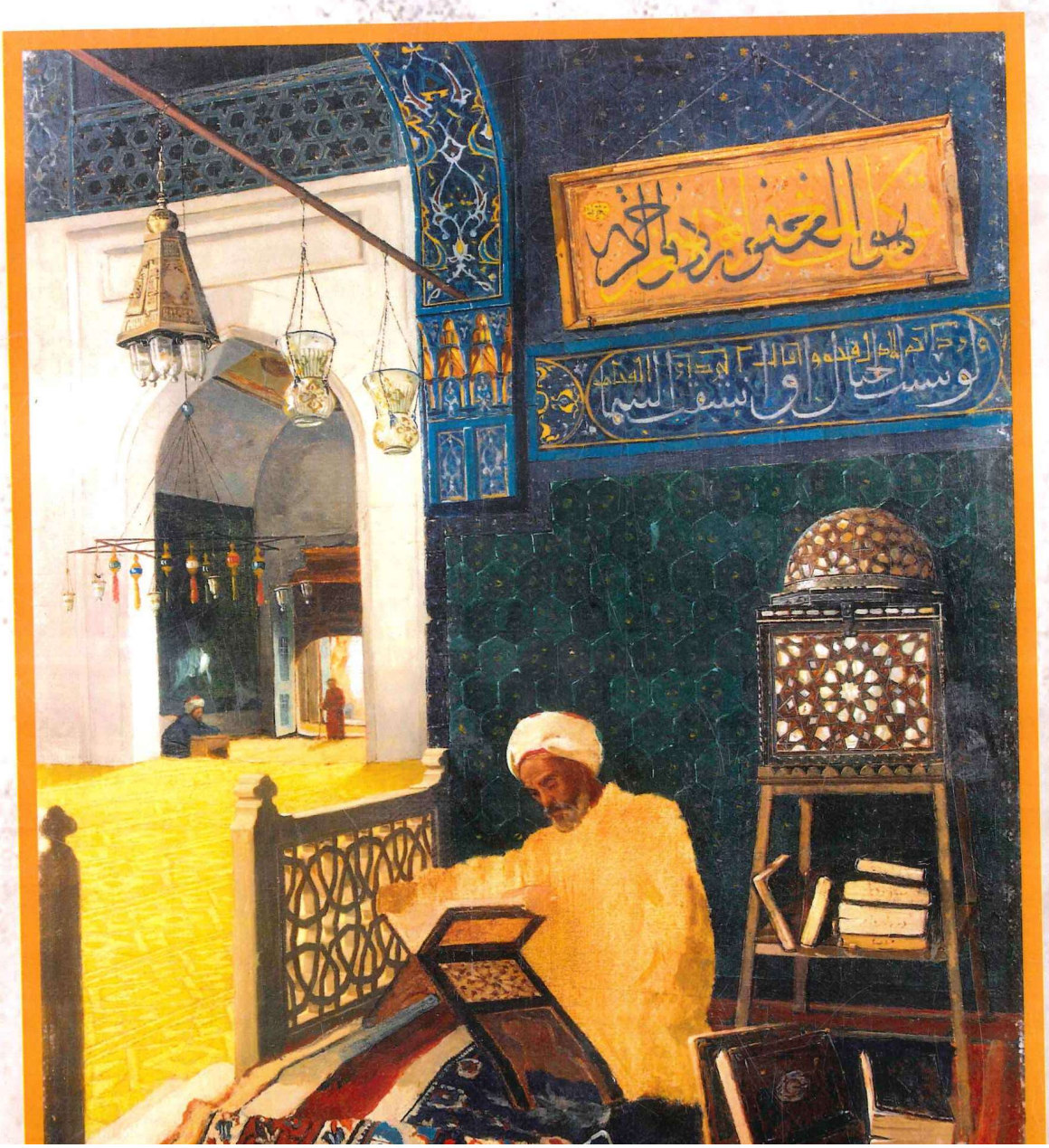

المنهج التأريخي عند أُبنِ الشّعّار الموصلي (ت٦٥٤ هـ) في كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف

- العنوان: المنهج التأريخي عند آبنِ الشّعّار الموصلي (ت٦٥٤هـ) في كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)
- التأليف: الدكتورة حنان عبد الخالق علي السبعاوي

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ISBN: 978-9922-9881-5-3

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد: (٢٨٣٨) لسنة ٢٠٢٢

طباعة: مطبعة نركال: العراق / الموصل / المجموعة الثقافية

الناشر: دار نون للطباعة والنشر

تنضيد: مكتب زيد خروفة

القياس: ١٧×٢٤

Email: muhammedyounes51@gmail.com

07709176176

07507070150

صفحتنا على ا لفيسبوك: منشورات نون

المنهج التأريخي عند ابن الشعّار الموصلي (ت٦٥٤هـ) في كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)

الدكتورة حنان عبد الخالق علي السبعاوي

المنهج التأريخي
عند بنِ الشّعّار الموصلي (ت٦٥٤هـ)

في كتابِهِ
(قلائد الجُمان في فرائد شعراء هذا الزمان)

الدكتورة
حنان عبد الخالق علي السبعاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

صدق الله العظيم

سورة المجادلة

من الآية: ﴿١١﴾

الإهداء

إلى والدَيّ حباً وأعتزازاً

ولأسرتي التي وهبتُ لها حياتي

من أجل أن تكونْ

أهدي هذا العناء الجميل

جزاء جهد

وعربون ودّ

وعنوان وفاء

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٥-٢٢
نظرة تمهيدية عامة عن روح العصر	٢٣-٤٩
أولاً- الأوضاع السياسية	٢٥-٣٦
ثانياً- الأوضاع الاقتصادية	٣٦-٤٠
ثالثاً- الحياة العلمية	٤٠-٤٩
الفصل الأول **ابن الشّعّار وكتابُهُ (قلائد الجمان)**	٥١-١٠٨
المبحث الأول- سيرة ٱبن الشّعّار	٥٣-٩٧
أولاً- ٱسمُهُ ونسبُهُ	٥٣-٥٤
ثانياً- مهنته	٥٥-٥٧
ثالثا- نشأته العلمية، شيوخه ورحلاته	٥٧-٨٨
(١) رحلته إلى تكريت	٦٤
(٢) رحلاته إلى بغداد	٦٤-٧١
(٣) زياراته للموصل	٧١-٧٢
(٤) رحلاته إلى اربل	٧٣-٧٧
(٥) رحلاته إلى حلب	٧٧-٨٢
(٦) رحلاته إلى دمشق	٨٢-٨٥

الموضوع	الصفحة
(٧) رحلته إلى الرقة	٨٥
(٨) رحلته إلى حران	٨٥
(٩) رحلته إلى واسط	٨٦
(١٠) شيوخه من مصر	٨٦-٨٨
رابعاً- تلاميذه	٨٩
خامساً- شعرُهُ	٨٩-٩٢
سادساً- مؤلفاته	٩٣-٩٥
سابعاً- مكانته العلمية	٩٥-٩٦
ثامناً- وفاته	٩٧
المبحث الثاني- التعريف بكتاب (قلائد الجمان)	٩٨-١٠٨
أولاً- تسمية الكتاب	٩٨-١٠٠
ثانياً- تأريخ التأليف	١٠٠-١٠٢
ثالثاً- نسخ الكتاب وأجزائِهِ وتحقيقه	١٠٢-١٠٨
الفصل الثاني **مضمون التراجم وشكلها**	١٠٩-٢١٠
المبحث الأول- المضمون	١١١-١٩٢
أولاً- الاسم والكنية واللقب	١١-١١٨
ثانياً- أُسر المترجم لهم	١١٨-١٢٠

الموضوع	الصفحة
ثالثاً- الولادة والوفاة	١٢٠-١٢٥
رابعاً- التوزيع المكاني:	١٢٥-١٣٣
(١) من ولد بالموصل وتوفي فيها	١٢٥-١٢٦
(٢) من ولد بالموصل ولم يذكر ٱبن الشّعّار مكان وفاته	١٢٦
(٣) من توفي بالموصل إلا أنه لا يعرف البلد الذي ولد فيه	١٢٦
(٤) من ولد بالموصل وتوفي في بلد آخر	١٢٧
(٥) من ولد خارج الموصل وتوفي فيها	١٢٧-١٢٨
(٦) من ولد وتوفي خارج الموصل	١٢٨-١٣٣
خامساً- ديانة المترجم لهم ومذاهبهم	١٣٤-١٣٧
سادساً- النشأة العلمية للمترجم لهم وتخصصاتهم	١٣٧-١٦٧
(١) نشأتهم العلمية	١٣٧-١٤٥
١- الشيوخ والتلاميذ	١٣٨-١٤١
٢- الرحلات	١٤١-١٤٢
٣- الإجازات العلمية	١٤٢-١٤٣
٤- الصلات العلمية	١٤٣-١٤٥
(٢) تخصصاتهم	١٤٥-١٦٧
١- العلوم الدينية:	١٤٦-١٤٨

الموضوع	الصفحة
أ- علوم القرآن الكريم	١٤٦
ب- الحديث النبوي الشريف	١٤٧
جـ- علم الفقه	١٤٨
٢- علوم اللغة العربية وآدابها:	١٤٩-١٥٧
أ- اللغة والنحو	١٤٩-١٥٠
ب- الأدب:	١٥٠-١٥٧
- الشعر	١٥٠-١٥٢
- الكتابة والإنشاء	١٥٢-١٥٣
- الخطابة	١٥٣-١٥٤
- الوعظ	١٥٤-١٥٥
- القصة	١٥٥-١٥٧
٣- التأريخ والجغرافية	١٥٧-١٥٨
٤- التصوف	١٥٨-١٥٩
٥- العلوم العقلية	١٥٩-١٦٠
٦- تراجم الموسوعيين	١٦٠
٧- التأليف والتصنيف	١٦١-١٦٧
سابعاً- أصحاب الوظائف والمهن	١٦٧-١٧١
ثامناً- تراجم الخاصة	١٧١-١٧٢

الموضوع	الصفحة
تاسعاً- أصحاب الكرامات والمقامات	١٧٢-١٧٣
عاشراً- أصحاب النوادر والألغاز	١٧٣
أحد عشر- أصحاب الرياضة والعاب التسلية	١٧٤
ٱثنا عشر- تراجم لم يذكر تخصصاتهم	١٧٥
ثلاث عشر- صفات المترجم لهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية	١٧٥-١٧٩
(١) الصفات الجسمانية	١٧٥-١٧٦
(٢) الصفات الشخصية	١٧٧-١٧٨
(٣) الحالة الاجتماعية	١٧٨-١٧٩
(٤) الحالة الاقتصادية	١٧٩
رابع عشر- مكانة المترجم لهم عند ٱبن الشّعّار	١٧٩-١٨٤
(١) الأحكام الإيجابية	١٨٠-١٨٢
(٢) الأحكام السلبية	١٨٢-١٨٣
(٣) الأحكام المزدوجة	١٨٣-١٨٤
خامس عشر- مكانة المترجم لهم عند العامة والخاصة كما وضِحّها ٱبن الشّعّار	١٨٤-١٨٥
سادس عشر- خطط المدن	١٨٦-١٩٢
المبحث الثاني: الشكل	١٩٣-٢١٠

الموضوع	الصفحة
أولاً- التنظيم	١٩٣-١٩٤
ثانياً- الحجم	١٩٤-٢٠١
ثالثاً- الإحالات	٢٠١-٢٠٣
رابعاً- الأسلوب	٢٠٤-٢٠٦
خامساً- التداخل	٢٠٦-٢٠٨
سادساً- التكرار	٢٠٨-٢١٠
الفصل الثالث **المصادر التي اعتمدها □بن الشّعّار في تدوين كتابِهِ**	٢١١-٢٥١
أولاً- الروايات الشفوية	٢١٢-٢٢٦
(١) لقاؤهُ بالشخصيات التي ترجم لها مباشرة	٢١٣-٢١٩
(٢) لقاؤهُ بشخصيات سبقَ لها أن التقت بالمترجم له	٢١٩-٢٢٤
(٣) روايات شفوية مجهولة	٢٢٤-٢٢٦
ثانياً- المصادر المدونة	٢٢٧-٢٤٦
(١) الكتب المدونة	٢٢٧-٢٤٤
(٢) المصادر المجهولة	٢٤٤-٢٤٦
ثالثاً- المشاهدات والمعاينات الشخصية	٢٢٦-٢٤٩
رابعاً- تنوع مصادره للترجمة الواحدة	٢٤٩-٢٥٠
خامساً- عدم ذكر المصادر لبعض تراجمه	٢٥٠-٢٥١
الفصل الرابع	٢٥٣-٢٨٨

الموضوع	الصفحة
أهمية كتاب (قلائد الجمان)	
أولاً- حفظ النصوص من الضياع	٢٥٤-٢٥٧
ثانياً- الأهمية العلمية والثقافية	٢٥٧-٢٦٩
ثالثاً- الأهمية التأريخية والسياسية	٢٦٩-٢٧٨
رابعاً- الأهمية الجغرافية	٢٧٨-٢٨٠
خامساً- الأهمية الاقتصادية والاجتماعية	٢٨١-٢٨٤
سادساً- (قلائد الجمان) كوُنُه مصدراً لمن جاء بعدَهُ من المؤرخين	٢٨٤-٢٨٨
الخاتمة	٢٨٩-٢٩٢
ثَبْتُ المصادر والمراجع	٢٩٣-٣١٢
الملاحق	٣١٣-٣٤٥

المقدمة

الحمدُ للهِ والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المرسلينَ نبينا وشفيعنا يوم القيامة محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

تُعّدُ كتبُ التراجم والطبقات أحد أنماط التدوين التأريخي التي تناولت مختلف طبقات المجتمع، كالمحدثين والفقهاء والحكماء والأطباء واللغويين والنحاة والأدباء، وغيرهم، اهتمت بنشاطهم العلمي وشيوخهم وطلابهم ورحلاتهم العلمية. وكان الشعراء مِنْ هؤلاء الذين عُني بهم فريق من المصنّفين عناية خاصة، فأرخوا لهم وصنّفوا كتباً تجمع أشعارهم، وتدوّن تراجمهم، وتَتَتَبّع أخبارهم، وتحصي آثارهم، لذلك نشطت حركة التأليف حول هذا النوع من التراجم ، ومنهم ٱبن الشّعّار الموصلي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) بكتابه الموسوم بـ: (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان) ليؤرخ فيه لشعراء عصره.

ويعد هذا الكتاب من أغنى كتب التراجم وأنفسها لما فيه من غزارة في المعلومات وهو ترجم لمن عاش في القرن (السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد) وأدركوا القرن (السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد). ويقع هذا الكتاب في عشرة أجزاء فُقد منه الجزءان الثاني والثامن وهو أشبه ما يكون بدائرة معارف لشعراء عصر ٱبن الشّعّار.

ومن الجدير بالذكر أن من بين هؤلاء الشعراء الذين ترجم لهم ٱبن الشّعّار عدد كبير من رجال الدين والقضاة والعلماء وأرباب الدولة وأصحاب المهن، لذلك فإن أهمية هذا الكتاب لا تقتصر على وصف الحياة الأدبية فحسب، وإنما تبرز كذلك في إظهار النواحي السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية.

فضلاً عن ذلك فإنه لم يختص بأهل حرفة معينة، أو طبقة واحدة من الناس، أو أهل مدينة واحدة على وجه الخصوص، على الرغم من كونه موصلي المولد. والكتاب في مجموعه هو حصيلة اللقاءات الشخصية، والتماس المباشر مع مترجميه، أي أنه كان حريصاً على لقاء من يترجم لهم وجهاً لوجه، ويروي عنهم أقوالهم وأشعارهم[١].

ونظراً لقيمة هذا الكتاب، وللاعتبارات الآنفة الذكر، ولكونه قد حُقق وطبع مؤخراً في سنة (٢٠٠٥م) بكافة أجزائِهِ المتبقية، فضلاً عن عدم وجود دراسة أكاديمية مستقلة عنه فيما عدا بعض البحوث المتفرقة[٢] التي لا تعطِ صورة واضحة ومتكاملة عن ٱبن الشّعّار وكتابه، مما دفعني لأن يكون الكتاب ومؤلفه موضوع دراستي الموسومة بـ "المنهج التأريخي عند ٱبن الشّعّار الموصلي (ت ٦٥٤هـ) في كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)".

وقد قُسّم الكتاب إلى أربعة فصول وخاتمة وعدد من الملاحق توزعت في موضوعات مختلفة سبقتها نظرة تمهيدية عامة عن روح العصر فيما يخص الأوضاع السياسية والاقتصادية والحياة العلمية.

وتناول الفصل الأول الحديث عن ٱبن الشّعّار وكتابه (قلائد الجمان)، واشتمل على مبحثين، تضمّن الأول سيرة ٱبن الشّعّار التي اختصت باسمه، ونسبه ومهنته، ونشأته العلمية وشيوخه ورحلاته وتلاميذه، ثم شعره ومؤلفاته، ومكانته العلمية، وأخيراً وفاته. أما الثاني فتضمّن التعريف بكتاب (قلائد

---

(١) الصقار، سامي، (ابن الشعار الموصلي مؤرخ الشعراء وكتابه "عقود الجمان في شعراء هذا الزمان")، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، (الرياض/ ١٩٧٩)، ٢٣٣/٦.

(٢) منها على سبيل المثال: الصقار، (ابن الشعار الموصلي)، ع٦؛ الداقوقي، حسين علي، (مؤرخان من القرن السابع)، مجلة دراسات للأجيال، نقابة المعلمين، (بغداد: ١٩٨١م)، ع٣، بنشريفة، محمد، (ابن الشعار، مرجعاً من مراجع أعلام المغرب)، مجلة الأكاديمية، (الرباط: ١٩٩١م)، ع٩.

الجمان) من حيث التسمية، وتأريخ التأليف ودوافعه، ومن ثم نسخ الكتاب وأجزائه.

وعُني الفصل الثاني بشكل التراجم ومضمونها، وقسّم الى مبحثين، اختص المبحث الأول بشكل التراجم الذي شمل التنظيم، والحجم، والإحالات، والأسلوب، والتداخل، والتكرار. واختص المبحث الثاني بمضمون التراجم من حيث الاسم والكنية واللقب، وأسر المترجم لهم، والولادة والوفاة، والتوزيع المكاني، وديانه المترجم لهم ومذاهبهم، ونشأتهم العلمية وتخصصاتهم، التي شملت العلوم الدينية التي قُسمت إلى علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعلم الفقه، وعلوم اللغة العربية وآدابها التي تفرّعت إلى قسمين هما: اللغة والنحو والقسم الآخر الأدب الذي شمل الشعر والكتابة والإنشاء والخطابة والوعظ والقصة، فضلاً عن التخصصات الأخرى كالتأريخ والجغرافية، والعلوم العقلية، والتصوف. وشمل المبحث الثاني أيضاً أصحاب الوظائف والمهن، وتراجم الخاصة، وأصحاب الكرامات والمقامات، وأصحاب النوادر والألغاز، وأصحاب الرياضة والعاب التسلية، وتراجم لم يذكر تخصصاتهم، كما شمل المبحث صفات المترجم لهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، ومكانتهم عند آبن الشّعّار، وعند العامة والخاصة كما يوضحّها آبن الشّعّار وأخيراً ذُكر في هذا المبحث خطط المدن.

وتناول الفصل الثالث المصادر التي اعتمدها آبن الشّعّار في تدوين كتابه، والتي شملت الروايات الشفوية، والمصادر المكتوبة، والمشاهدات والمعاينات الشخصية، وتنوع مصادره للترجمة الواحدة، ومن ثم عدم ذكر المصادر لبعض تراجمه.

وخُصص الفصل الرابع لمعرفة أهمية كتاب (قلائد الجمان) من حيث حفظ النصوص من الضياع، والأهمية العلمية والثقافية، والتأريخية والسياسية، والجغرافية، والاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن اعتبار (قلائد الجمان) مصدراً لمن جاء بَعدهُ من المؤرخين.

أما المنهج المتبع في هذا الكتاب، تمثّل في توضيح وتحليل كل حالة أو فقرة أو عنوان يخص منهج ٱبن الشّعّار، مع إعطاء أمثلة مفصّلة عن تلك الحالة في المتن، ثم إحالة القارئ الكريم في الهامش إلى الحالات المشابهة لها بالإشارة إلى المجلدات والأجزاء والصفحات التي وردت فيها تلك الأمثلة. وقد ذكرت سنوات الولادة أو الوفاة لمن ترجم لهم ٱبن الشّعّار، ما عدا المعاصرين له، فلم تذكر وفياتهم، لذلك تمت الإشارة إلى ذلك في ثنايا الكتاب وفي الهامش مع الاستعانة بمصادر أخرى للبحث عن وفاة من لم يذكره ٱبن الشّعّار، لاسيما إذا كان المترجم له معروفاً، وإذا كان غير معروفٍ فمن المحتمل أن تلك المصادر لا تشير إلى سنة وفاته، فيشار في الهامش إلى أنه لم يعثر على سنة وفاته. وعند الحديث عن التخصصات العلمية نذكر أعدادهم، إلا أنه قد يشترك بعض الذين ترجم لهم ٱبن الشّعّار في علم من العلوم مع علم آخر، فمثلاً عندما يتم حساب عدد الفقهاء في الفقه، قد يحسب البعض من هؤلاء الفقهاء عند حساب عدد المحدثين، وبذلك يشترك شخص واحد في اختصاصات عدة، وهذا يعني أنه عندما نجمع كل الأعداد في جميع العلوم يكون المجموع النهائي أكثر من عدد التراجم عند ٱبن الشّعّار. وكذلك أصحاب الوظائف، فقد تشترك الذين تولوا وظائف أو مناصب في أكثر من وظيفة أو منصب. وفيما يخص تراجم الموسوعيين الذين يعدون من ضمن التخصصات العلمية فقد جعلوا فقرة مستقلة بذاتها، دون أن تكرر تخصصاتهم في سائر العلوم، لان القاعدة التي صنفوا بموجبها كونهم موسوعيين، أنهم برعوا في العلوم الشرعية والإنسانية والعقلية.

أما أهم المصادر والمراجع التي أعتمدها الكتاب في إكمال الدراسة والتوثيق، فهي: مجموعة من المصادر والمراجع والبحوث المنشورة في المجلات العلمية، فضلاً عن الأطاريح والرسائل الجامعية. ومن أهم المصادر كتاب (الكامل في التأريخ) لابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، إذ يعد من كتب التواريخ الحولية العامة، وقد أفادنا في بيان الأوضاع السياسية والاقتصادية

والعلمية للمدن التي زارها ٱبن الشّعّار، وكذلك أفاد الكتاب في الفصل الرابع فيما يتعلق بالحوادث التأريخية التي دوّنها ٱبن الشّعّار، ومقارنتها مع ٱبن الأثير لكون أحدهما معاصراً للآخر من أجل معرفة ما انفرد به ٱبن الشّعّار.

أما كتابه الآخر فهو (التأريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل) الذي يعد من التواريخ المحلية التي أختصت بحكام الدولة الأتابكية في الموصل، حيث دوّن فيه أخبار هذه الدولة إلى سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)، وقد أفادنا في الفصل التمهيدي لتوضيح جانبٍ من الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية للموصل.

كما تمَّ الاعتماد على كتاب (مرآة الزمان في تأريخ الأعيان) لسبط ٱبن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، الذي سار فيه على نظام الحوليات، إذ ذكر أحداث كل سنة ثم بعد ذلك بدأ بترجمة وفيات تلك السنة، وقد ترجم للعلماء والأعيان ترجمات وافية، وتكمن فائدته للبحث من خلال ما تسجّيله من الأحداث التأريخية التي استخدمت للمقارنة مع ما ذكره ٱبن الشّعّار من هذه الأحداث بوصفه معاصراً له، وفضلاً عن ذلك فقد أفاد الكتاب من خلال الإستعانة به في ترجمة عدد من الشخصيات الواردة عرضاً في هذا الكتاب.

وكذلك الجزء الثاني من كتاب (تأريخ إربل) المسمى (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) لابن المستوفي الاربلي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، فهو من المصادر المهمة التي أفادتنا لكونه أعطى ترجمة مفصّلة ووافية عن ٱبن الشّعّار فيما يخص ٱسمه ونسبه وولادته ومهنته ومؤلفاته.

وعُدّ كتاب (تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين) لأبي شامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) من المصادر القيّمة التي أغنت كتابي، لكونه معاصراً لابن الشّعّار، وهو تكملة لكتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والزنكية) الذي أنهاه سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م). وبدأ ذيل الروضتين من سنة (٥٩٠ إلى ٦٦٥هـ/١١٩٣ إلى ١٢٦٦م)، أي وصل بالحوادث الى سنة وفاته، حيث أورد أبو شامة العديد من التراجم الخاصة

بالقرنين السادس والسابع، فضلاً عن تسجيله للأحداث التأريخية، وقد أفاد الكتاب في المقارنة التي تمت بينه وبين ٱبن الشّعّار حول الأحداث التأريخية التي أنفرد بذكرها ٱبن الشّعّار في الفصل الخاص بأهمية كتاب (قلائد الجمان)، فضلاً عن ترجمته بعض الشخصيات الواردة عرضاً في الكتاب.

وكذلك كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) الذي رتبه على حروف المعجم، فقد أفاد الكتاب في ترجمة بعض الشخصيات التي تحتاج إلى تعريف، وكذلك في الفصل الرابع في الفقرة الخاصة بـ (قلائد الجمان) مصدراً لمن جاء بعده من المؤرخين، لكونه قد نقل من الأخير في مواضع عدة، علماً أن ٱبن خلكان كان معاصراً لابن الشعار، وتربطهما صداقة.

ومن الكتب الجغرافية التي أفادني من كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، وتكمن فائدته في ايضاح وتعريف مواضع عدد من البلدان والمدن الواردة عند ٱبن الشّعّار.

ومن المراجع الحديثة التي أفادني كتاب (دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥٢١-٦٣١هـ)) لرشيد الجميلي، وكتاب (إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ (٦٠٦-٦٦٠هـ/١٢٠٩-١٢٦١م)) لسوادي عبد محمد الرويشدي، وكتاب (اربيل في العهد الأتابكي) لمحسن محمد حسين، وتكمن فائدتها في طرح بعض وجهات النظر في الفصل التمهيدي.

ومن الأطاريح والرسائل الجامعية المهمة التي أفادت كتابي هذا أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ (منهج ٱبن خلكان في وفيات الأعيان) لخليل ابراهيم جاسم، وكذلك الأطروحة الموسومة بـ (حلب في العهد الأيوبي (٥٧٩-٦٥٨هـ/١١٨٣-١٢٥٨م)) لعلي نجم عيسى، فضلاً عن رسالة الماجستير الموسومة بـ (الحياة العلمية في الموصل في عصر الأتابكة (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦٢م)) لعبد الجبار حامد أحمد.

أما البحوث العلمية التي استفدت منها فكان أهمها: بحث سامي الصقار الذي عنوانه (ابن الشعار الموصلي، مؤرخ الشعراء وكتابه "عقود الجمان في شعراء هذا الزمان")، وكذلك البحث الموسوم بـ: (مؤرخان من القرن السابع) لحسين علي الداقوقي، وتمت الاستفادة من هذين البحثين في توضيح بعض الجوانب الخاصة بمنهج ٱبن الشّعّار في كتابه (قلائد الجمان)، وغير ذلك من الكتب التي يجدها القارئ الكريم في ثبت المصادر والمراجع.

وأرجوا أن أكون قد وفقت في إنجاز هذا الكتاب، وأحمد الله وأشكره الذي أعانني على إكماله، فما هذا الجهد إلا بتوفيقه وفضله عز وجل.

نظرة تمهيدية عامة عن روح العصر

التمهيد

يتناول هذا التمهيد الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية التي كان لها دور في المدة التي عاشها ٱبن الشّعّار الموصلي ولمدن محددة وهي بغداد واربل ودمشق وحلب، وذلك لكثرة تردده على تلك المدن، فضلاً عن تأثيراتها على الموصل لقربها منها، ولوجود صلات قوية ومتبادلة فيما بينهم، علماً أن هناك مدناً أخرى زارها ٱبن الشّعّار والتقى بعلمائها. وقد انعكست هذه الأوضاع على نشاطه المعرفي الذي تمت دراسته في الفصول القادمة.

أولاً- الأوضاع السياسية

عاش ٱبن الشّعّار في النصف الأول من القرن (السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد)، ويعد هذا القرن امتداداً للقرن الذي سبقه الذي مثّل وجود عدة قوى سياسية في بغداد، والموصل، واربل، وبلاد الشام، وهي ذاتها التي استمرت في النصف الأول من القرن السابع للهجرة، وتمثلت هذه القوى بالخلافة العباسية في بغداد، والدولة الاتابكية في الموصل واربل، والدولة الأيوبية في بلاد الشام.

وقد عاصر ٱبن الشّعّار الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م)، وكانت خلافته قرابة مِنْ سبع وأربعين سنة، ولم يتول أحد من الخلفاء العباسيين الخلافة مثل هذه المدة[١]. ووقعت في عهده العديد من الأحداث منها القضاء على آخر سلاطين السلاجقة في العراق وهو

(١) سبط ٱبن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي، مرآة الزمان في تأريخ الأعيان، ط٢، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد الدكن: ١٩٥١م)، ج٨ ق٢/٦٣٥.

طغرل الثالث[1]، كما شهد عهده بدايات التوغل المغولي في المشرق[2]. وكذلك قطعت الدولة الخوارزمية في عهد خوارزم شاه خطبة بني العباس في بلادها خراسان وحاولوا الوصول إلى بغداد، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لتعرضهم في الطريق لموجة ثلج كثيف مدة عشرين يوماً، فرجعوا عن هذا الأمر على الرغم مِنْ أن الخليفة قد استعد لذلك الهجوم[3]. وعندما توفي الخليفة الناصر لدين الله، بويع من بعده ابنه الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م). وتولى الخلافةَ وعمرُهُ اثنتان وخمسون سنة، وكانت له أعمال جليلة، لكن مدة خلافته لم تستغرق أكثر من تسعة أشهر[4]. وتولى

---

(١) السلطان طغرل شاه بن ارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه آخر ملوك السلاجقة في العراق الذي انتهى بمقتله سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) سلاجقة العراق، ينظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، (بيروت: ١٩٩٨م)، حوادث ووفيات ٥٨١-٥٩٠هـ، ص٣٧٦-٣٧٧.

(٢) الدباغ، هدى ياسين، عبد اللطيف البغدادي دراسة في نصوصه التأريخية (٥٥٧-٦٢٩هـ/١١٦١-١٢٣١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، (جامعة الموصل: ٢٠٠٥م)، ص٧.

(٣) الذهبي، تأريخ الإسلام، حوادث ووفيات ٦٢١-٦٣٠هـ، ص٨٥؛ والدولة الخوارزمية: تقع شرقي فرثية وتعرف قصبتها باسم خوارزميا، وقد فتحت خوارزم على يد السلطان محمود السلجوقي سنة (٤٠٨هـ/١٠١٧م)، وظلا خوارزم تابعة للبيت السلجوقي الى حين وفاة السلطان السلجوقي سنجر سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م)، واستطاعت خوارزم في عهد خلفاء السلطان سنجر ان تحتل مكانتها شيئاً فشيئاً، ومن ثم أصبح حامل لقب خوارزم شاه يمكن أن يعد خليفة سلاطين السلاجقة في ملكهم بآسيا الصغرى. ينظر: فاير، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، (طهران: ١٩٣٣م)، مادة خوارزم، ٣/٩، ٦.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٢/٦٤٢-٦٤٣؛ آبن كثير، عماد الدين اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار آبن كثير، (بيروت: ١٩٦٧م)، ١٣/١٠٧-١٠٨؛

بعدَهُ ابنُهُ المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) الذي سلك سيرة أبيه في الخير والإحسان إلى الناس وإقامة العدل بينهم[١]. وجاء بعده ابنه المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) الذي شهد عهده نهاية الخلافة العباسية وسقوطها على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) [٢].

وكان يحكم الموصل في هذه المدة الدولة الاتابكية (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦٢م) التي أسسها عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م) [٣]، الذي عمل فيها على تنظيم إمارته إدارياً وعسكرياً، وكانت سياسته تهدف إلى تكوين جبهة إسلامية ليتمكن من الوقوف في وجه الصليبيين، فدعا إلى توحيد جهود المسلمين وحشد قواهم لقتال الصليبيين، فوضع بذلك أساس حركة الجهاد ضد الفرنج[٤]. ثم خَلَفهُ في الحكم أبناؤه وأحفادُهُ الذين كانوا كسائر الأمراء المسلمين يرتبطون بالخليفة العباسي برابطة الولاء الروحي، فكانوا يعترفون بسلطانه ويتوجهون إليه للحصول على

القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير (٥١٢-٦٥٦هـ)، مطبعة القضاء، (النجف: ١٩٧١م)، ص٨١.

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٢/٦٤٣؛ الياسين، محمد مفيد، الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري، الدار العربية للطباعة، (بغداد: ١٩٧٩م)، ص٦٦.

(٢) ٱبن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي، مختصر التأريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، (بغداد: ١٩٧٠م)، ص٢٦٦، ٢٧٠-٢٧٢.

(٣) ٱبن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، التأريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، (القاهرة: ١٩٦٣م)، ص٣٤.

(٤) الجميلي، رشيد، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي (٥٢١-٦٣١هـ)، دار النهضة العربية، (بيروت: ١٩٧٠م)، ص٤٧.

تفويض بالحكم ليسبغوا على هذا الحكم صبغة شرعية لتصبح من المستلزمات الضرورية في نظر شعوبهم ولاسيما الفقهاء منهم[١].

وقد عاصر ٱبن الشّعّار من الحكام الاتابكة في الموصل نور الدين ارسلان شاه الأول ٱبن عز الدين مسعود الأول (٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م) [٢]، الذي كان عصره عصر حروب بين الاتابكِة أنفسِهم في الموصل والمدن المجاورة لها ممّا أدى إلى إضعافهم[٣]، ولما اشتد به المرض سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود الثاني (٦٠٧-٦١٥هـ/١٢١٠-١٢١٨م) وكان عمرُهُ عشر سنين، وكان الوصي عليه ويتولى تدبير أمره مملوكه الارمني بدر الدين لؤلؤ وحلف له الجند واعيان الناس، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي الثاني قلعتي عقر والشوش، وسيره إلى العقر، وتوفي نور الدين ودفن بالمدرسة القاهرية التي أنشأها قبالة داره[٤]. وفي عهد القاهر عز الدين مسعود الثاني تسلط بدر الدين لؤلؤ على الدولة، وسلك مختلف الطرق في القضاء على أبناء الاتابكة واحداً بعد الآخر.

---

(١) رشاد، عبد المنعم، الموصل في عهد الإدارة الاتابكية (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦٢م)، موسوعة الموصل الحضارية، ط٢، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل: ١٩٩٢م)، ٢/١٦٤.

(٢) ٱبن الاثير، التأريخ الباهر، ص١٩٧.

(٣) الديوه جي، سعيد، تأريخ الموصل، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل: ١٩٨٢م)، ١/٣٠٤.

(٤) ٱبن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التأريخ، راجعه: محمد يوسف الدقاق، ط٤، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٦م)، ١٠/٣٥٤-٣٥٥؛ وعقر: قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها اكراد تقع في شرقي الموصل وتعرف بعقر الحُمَيدية، أما الشوش: فهي قلعة عالية قرب الحُميَدية من أعمال الموصل، ينظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، ط٨، دار صادر للطباعة والنشر، (بيروت: ٢٠١٠م)، ٤/١٣٦، ٣/٣٧٢.

وكان أولهم القاهر عز الدين مسعود الثاني الذي توفي سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) وعهد بالملك بعده لابنه نور الدين ارسلان شاه الثاني (٦١٥-٦١٦هـ/١٢١٨-١٢١٩م) الذي كان صغير السن لا يتجاوز عمره عشر سنوات بتدبير من بدر الدين لؤلؤ لينفرد بالسلطة، إذ لم يكن من مصلحته تولي الملك رجل مدّبر يدير أمور البلاد بنفسه، وعلى الرغم من ذلك فقد قتله بدر الدين لؤلؤ ولم تمضِ عليه سنة في حكمه[١]. ثم جاء بعده آخر الملوك الاتابكة الذين قضى عليهم بدر الدين لؤلؤ وهو ناصر الدين محمود بن القاهر عز الدين مسعود (٦١٦-٦٣١هـ/١٢١٩-١٢٣٢م) [٢]، ليحكم بدر الدين حتى وفاته سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م)[٣]. وقد عمل خلال فترة حكمه للموصل، ومنذ أن كان وصياً على حكم آخر الأمراء الاتابكة على تقوية علاقته مع الخلفاء العباسيين الأربعة الذين عاصروه وهم الناصر لدين الله، والظاهر بأمر الله، والمستنصر بالله، والمستعصم بالله بوصفهم خلفاء السلطة العليا، فمثلاً في عهد الخليفة الناصر لدين الله عمل على توطيد علاقته به مِنْ خلال تحويل أنظاره عن التعاون والمعاضدة مع حكام الإمارات والمدن الذين كانوا معادين له مثل مظفر الدين كوكبري (٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١٢٣٣م) صاحب اربل، وعماد الدين زنكي الثاني صاحب قلعتي العقر والشوش[٤]. وكذلك عن طريق الهدايا والانتساب إلى الخليفة والمصاهرة مع رجال دولته بما يعزز مكانته[٥]، وقد

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣٨٢/١٠-٣٨٣؛ الديوه جي، تأريخ الموصل، ٣١١/١.

(٢) ٱبن كثير، البداية والنهاية، ١٣٦/١٣.

(٣) ٱبن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، (بيروت: د.ت)، ٢٨٩/٥.

(٤) الرويشدي، سوادي عبد محمد، إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ (٦٠٦-٦٦٠هـ/١٢٠٩-١٢٦١م)، مطبعة الارشاد، (بغداد: ١٩٧١م)، ص٥٤-٥٧.

(٥) الديوه جي، تأريخ الموصل، ٣١٦/١.

أثمرت سياسته هذه في الحصول على نتائج ايجابية كما حدث عندما أرسل إلى الخليفة المستنصر بالله يطلب منه التقليد، وتم له ذلك، فقد أرسل الخليفة له في سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) خلعة السلطنة والتقليد[١]. غير أن هذه العلاقات أصبح يشوبها الجفاء والفتور ولاسيما بعد ان هدد الانحلال السياسي سلطة الخلافة، وبات المغول الذين سعوا إلى إقامة إمبراطورية مغولية عالمية يشكلون أعظم خطر يهدد سلامة جميع البلدان الإسلامية، وقد وصلت العلاقات إلى حدٍّ راحَ معها بدر الدين لؤلؤ يسدي النصح للخليفة بالاستعداد لمواجهة الغزو المغولي[٢] القادم من أقصى الشرق بقيادة جنكيز خان، الذي تعرض له العالم الإسلامي في بداية القرن السابع للهجرة[٣]. ولم يكن موقف بدر الدين لؤلؤ منه يسير على وتيرة واحدة في هذه الفترة، ففي السنوات (٦١٧هـ/١٢٢٠م) [٤]، (٦١٨هـ/١٢٢١م)[٥]، انصرف فيها بدر الدين لؤلؤ إلى دفع الأخطار التي كان يسببها له المغول عن أطراف إمارته ممّا اضطر في نهاية الأمر إلى التعاون مع مظفر الدين كوكبري حاكم اربل عندما اتجهت قطعات من الجيش المغولي نحو اربل لاحتلالها، وقد فشلت محاولتهم بفضل النجدات التي وصلت إلى اربل من الموصل والعساكر التي أرسلها الخليفة

(١) ٱبن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح: مصطفى جواد، مطبعة الفرات، (بغداد: ١٩٣٢م)، ص٥٢.

(٢) الرويشدي، إمارة الموصل، ص٦٥-٦٦.

(٣) نفسه، ص٢٤١.

(٤) الذهبي، تأريخ الإسلام، حوادث ووفيات ٦١١-٦٢٠هـ، ص٤٤.

(٥) الغساني، الملك الأشرف إسماعيل بن العباس، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمد عبد المنعم، دار البيان، (بغداد: ١٩٧٥م)، ١/٣٨٤-٣٨٥.

الناصر لدين الله[1]، غير أنهم في شهر ذي الحجة من سنة (٦٣١هـ) الموافق لشهر آب من سنة (١٢٣٣م) استطاعوا الهجوم على إحدى قرى الموصل وتدعى (بارمون) فنهبوها وقتلوا منها خلقاً كثيراً[2].

ويبدو موقف بدر الدين لؤلؤ جلياً عندما راح يطلب معونة الخليفة المستنصر بالله سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) لدفع خطر المغول عن الموصل عندما اجتازت عساكرهم اربل في طريقها إلى الموصل، وقد تصدى لها جيش اربل لكنه لم يستطع ان يؤخرها عن الوصول إلى أعمال الموصل ممّا جعل الخليفة يظهر بمظهر المساند لبدر الدين لؤلؤ وتخليصه ممّا عسى ان ينالـه مِن المغول[3]. أما في سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) والسنوات التي تلتها فقد توسعت فيها غزوات المغول، ممّا جعل بدر الدين لؤلؤ يغير من سياسته إلى إتباع سياسة استرضاء المغول ومهادنتهم وتقديم الأموال لهم لحماية إمارته[4]. إلا أنه قبيل وقوع بغداد بأيدي المغول فإن الأمر قد تغير تماماً، وكان بدر الدين لؤلؤ على علم تام بأن الخليفة أصبح في وضع لا يستطيع معه مجابهة هذا الخطر، لذلك كان يرى أن عليه أن ينحاز كلياً إلى جانب المغول حتى إن

---

(١) الرويشدي، إمارة الموصل، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٢) ٱبن الشّعار، كمال الدين أبو البركات المبارك الموصلي، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠٠٥م)، م٨ ج١٠/١٠٢.

(٣) ٱبن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٨٤-٨٥؛ الرويشدي، إمارة الموصل، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٤) الرويشدي، إمارة الموصل، ص٢٤٧-٢٤٨.

جيوشهم التي جاءت من بلاد الروم عبرت جسر الموصل في طريقها إلى بغداد لم تتعرض للموصل وأعمالها بأي أذى[١].

أما اربل فكانت هي الأخرى تحت حكم الاتابكة من بني بكتكين، وعاصر آبن الشّعّار منهم الحاكم مظفر الدين أبي سعيد كوكبري بن زين الدين أبي الحسن علي المعروف بكجك[٢]، وقد شهدت اربل في عهده تطوراً في مختلف المجالات، فعلى المستوى السياسي وطد كوكبري علاقته بالخلافة العباسية باعترافه بالتبعية لها[٣]، وبعد وفاة مظفر الدين سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ضُمت اربل إلى ممتلكات الخلافة العباسية حيث أمر الخليفة العباسي المستنصر بالله أمير البصرة أبا المظفر شمس الدين باتكين بن عبد الله الرومي بالتوجه إلى اربل ليتولى أمرها وليصير حاكماً عليها ونائباً عنها فوصلها في التاسع عشر من شهر ذي الحجة سنة (٦٣٠هـ) الموافق السابع والعشرين من آب سنة (١٢٣٢م) [٤]. وظل هذا يحكم اربل إلى ان هاجمها المغول سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، وقد قاتلهم إلا أنه لم يقدر على مقاومتهم فدخلوا المدينة عنوة واستباحوها ونهبوها، ثم غادروا اربل، وعلى أثر

---

(١) الهمداني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة: ١٩٦٠م)، ج٢ق١/٢٨١؛ الرويشدي، إمارة الموصل، ص٢٥١.

(٢) آبن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، (بيروت: ١٩٩٧م)، ٢/٢٩٠، ٢٩٣.

(٣) حسين، محسن محمد، اربيل في العهد الاتابكي، مطبعة اسعد، (بغداد: ١٩٧٦م)، ص١٥٢.

(٤) آبن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٤٨؛ حسين، اربيل في العهد الاتابكي، ص٢١٥.

هذا الحادث ترك الأمير باتكين هذه المدينة وتوجه إلى بغداد[١]، واستقر فيها إلى أن توفي في سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)[٢].

وفي بلاد الشام كانت الوحدة التي حققها السلطان الأيوبي الناصر لدين الله صلاح الدين بن أيوب (٥٦٧-٥٨٩هـ/١١٧١-١١٩٣م) بين بلاد الشام ومصر، والتي ربطت بين بلاد المسلمين لم تدم طويلاً، إذ اقتسم خلفاؤه المملكة بعد وفاته سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) [٣]، فآلت دمشق إلى ولده الأفضل[٤]، ومصر إلى الملك العزيز[٥]، وحلب إلى الملك الظاهر[٦]، والكرك إلى عمه الملك العادل[٧]، فضلاً عن اقتسام مناطق أخرى بين أفراد البيت الأيوبي[١].

---

(١) سبط آبن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٢/٦٩٩.

(٢) آبن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص١٨٠-١٨١.

(٣) الدباغ، عبد اللطيف البغدادي دراسة في نصوصه، ص٨.

(٤) أبو الحسن علي بن السلطان صلاح الدين واكبر اولاده واليه كانت ولاية عهده، وقد استقل بمملكة دمشق (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م). للمزيد من التفاصيل ينظر: آبن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/١٩٩-٢٠٠.

(٥) عماد الدين أبو الفتح عثمان بن السلطان صلاح الدين، ولد سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)، كان نائباً عن أبيه بالديار المصرية لما كان أبوه بالشام وتوفي أبوه بدمشق فاستقل بملكيتها باتفاق من الأمراء (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م). ينظر: نفسه، ٢/١١٩-١٢٠.

(٦) غازي بن صلاح الدين، ولد بمصر سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) وكان مهيباً له سياسة وفطنة، تولى أمر مدينة حلب وغيرها من بلاد الشام وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء (ت٦١٣هـ/١٢١٦م). ينظر: آبن الأثير، الكامل، ١٠/٣٦٩-٣٧٠؛ سبط آبن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٢/٥٧٩.

(٧) سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب، أعطاه أخوه السلطان صلاح الدين الأيوبي مصر ثم ثم حلب وغيرها من المناطق وجرت العديد من الحوادث بينه وبين أولاد أخيه إلى أن استقر له الملك، وكان مجاهداً حسن التدبير (ت٦١٥هـ/١٢١٨م). للمزيد من التفاصيل ينظر: سبط آبن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٢/٥٩٤؛ والكرك: اسم لقلعة حصينة جداً في

واضطرب الأمر بين الأبناء ولاسيما بين الملك الأفضل بعد توليه دمشق سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وأخيه الملك العزيز ممّا استدعى إلى تدخل الملك العادل الذي وقف إلى جانب الملك العزيز في حين انحاز الملك الظاهر إلى الملك الأفضل مدة من الزمن، ولكن كانت النتيجة أن تمكن الملك الظاهر والملك العادل من إقصاء الملك الأفضل عن دمشق واعِطاهُ صرخَد. وتولي الملك العادل الشام(٢).

وبعد وفاة الملك الظاهر تولى حكم حلب ابنُهُ الملك العزيز محمد (٦١٣-٦٣٤هـ/١٢١٦-١٢٣٦م) (٣)، واستخلف الناس بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف الثاني الذي استمر بالحكم إلى سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)(٤). وقد اتسمت علاقة حكام حلب مع الخلافة العباسية بالايجابية، لما تشكله الخلافة بوصفها مصدراً للشرعية في الحكم التي ارتكز عليها حكام حلب في توجهاتهم السياسية(٥).

طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس. الحموي، معجم البلدان، ٤/٤٥٣.

(١) للمزيد من التفاصيل ينظر: آبن الاثير، الكامل، ١٠/٢٢٥-٢٢٦؛ آبن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطابع دار القلم، (القاهرة: ١٩٦٠م)، ٣/٣.

(٢) سبط آبن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٢/٤٤١-٤٤٣؛ سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، (مصر: ١٩٦٨م)، ص٤٢-٤٣؛ وصرخَد: هي بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وفيها قلعة حصينة وولاية واسعة. الحموي، معجم البلدان، ٣/٤٠١.

(٣) آبن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد، زبدة الحلب من تأريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق: د.ت)، ٣/١٧٥.

(٤) نفسه، ٣/٢٢١.

(٥) عيسى، علي نجم، حلب في العهد الأيوبي (٥٧٩-٦٥٨هـ/١١٨٣-١٢٥٨م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، (جامعة الموصل: ١٩٩٩م)، ص١٥٠.

وأما علاقة حلب مع الصليبيين فقد كانت بينهما حروب مستمرة، ولم تخل تلك الحروب من فترات المهادنة، كما حصل ما بين عامي (٦٠٦-٦١١هـ/١٢٠٩-١٢١٤م) وذلك لانشغال الملك الظاهر في مشكلاته السياسية والعسكرية مع عمه الملك العادل من جهة، والتصدي لغارات الأرمن من جهة أخرى فواجه قبولاً في إقامة الهدنة مع الصليبيين(١).

ولم تستمر المهادنة السياسية طويلاً مع الصليبيين الذين لم يترددوا في الهجوم على حصن الخوابي في عام (٦١١هـ/١٢١٤م) فتصدت لهم القوات الحلبية، وحالت دون سيطرتهم على الحصن(٢). وعلى أثر ذلك توترت العلاقات بين الطرفين، ممّا دفع القوات الحلبية في عام (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) إلى شن غارة على حصني المرقب وبانياس وإطلاق سراح الأسرى المسلمين(٣).

وتبع تلك المواجهات العسكرية عقد هدنة بين الصليبيين وحلب ظلت سارية المفعول إلى عام (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) حين قام الصليبيون بالإغارة على بلدة العمق من أعمال حلب، وعلى أثر ذلك خرج جيشٌ بقيادة الملك المعظم توران شاه ابن الملك الناصر الذي استطاع هزيمة الصليبين قرب مدينة دربساك التي هي من أعمال حلب أيضاً، وكانت تلك المعركة آخر مواجهة بين الصليبين والحلبيين(٤).

وتعرضت حلب في هذه المدة إلى هجمات المغول، ففي سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) نزلوا على حيلان، وقتلوا وأسروا الكثير من سكانها، إلا أنهم

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ٣/١٥٥-١٥٦؛ قاسم، عبدة قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (الكويت: ١٩٩٠م)، ص١٤٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣/٢٢٤؛ عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص٥٣.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ٣/٢٠٩-٢١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/٣١١؛ عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص٥٣.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ٣/٢٣٠-٢٣١؛ عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص٥٣-٥٤.

رحلوا عنها بعدما أدركوا صعوبة اقتحامها[1]. وفي سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) خرب المغول بعض مدن الجزيرة الفراتية[2]. وتطورت الأحداث وواصل المغول اجتياحهم للعديد من مدن الجزيرة والشام الى أن انتهى الأمر باستيلائهم على بعض مدن الجزيرة عندما دخل هولاكو ديار بكر قاصداً حلب سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) [3]. ثم احتلالهم حلب في سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٨م)[4].

يتبين ممّا سبق أن الأحداث السياسية في المدن المذكورة آنفاً لم يكن لها تأثير مباشر على رحلات ٱبن الشّعّار بدليل عدم توقفه عن الترحال إلى المدن التي زارها بل استمر نشاطه العلمي قائماً رغم كل الظروف. كما أن حالات الاستقرار السياسي التي حصلت في تلك المدن وعلاقاتها الايجابية مع الخلافة العباسية زادت من نشاط رحلاته، وكانت هي الأخرى مادة لكتابة (قلائد الجمان) وهذا يمكن ملاحظته من كثرة تراجمه للشخصيات والاعلام في تلك المدن، فضلاً عن طول إقامته فيها.

ثانياً- الأوضاع الاقتصادية

إن كثرة العمران واستقرار الناس ورفاهيتهم تؤدي إلى توجههم نحو طلب العلم والمعرفة، وهذا ما أكده ٱبن خلدون، فهو يعّد العلم والمعرفة من جملة الصنائع، وأن هذه الصنائع تكثر في الأمصار حسب كثرة العمران

(١) ٱبن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دمشق: ١٩٧٨م)، ج٣ق٤٧٢/٢؛ وحيلان: قرية تقع شمال شرق حلب تخرج منها عين فوارة تدخل إلى حلب في قناة إلى جميع مدينة حلب. ينظر: الحموي: معجم البلدان، ٣٣٢/٢.

(٢) سبط ٱبن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ق٧٨٥/٢.

(٣) اليونيني، قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد البعلبكي الحنبلي، ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد الدكن: ١٩٥٤م)، ٦٥٧/١.

(٤) ٱبن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٧/١٣.

وقلته، ومتى ما استقر الناس وأكملوا العمران انصرفوا إلى هذه الصنائع التي كان العلم والمعرفة جزءاً منها[١]، اي كلما كان المجتمع متطوراً اقتصادياً كان دوره في رعاية العلم والبحث عن المعرفة أكثر والعكس صحيح، وبموجب تلك القاعدة يمكن دراسة الأوضاع الاقتصادية في عصر ٱبن الشّعّار وتأثيرها في نتاجه الفكري.

فالنشاط الاقتصادي في العراق خلال النصف الأول من القرن (السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد) كان مزدهراً بسبب السياسة التي اتبعها الخلفاءُ العباسيون في تلك المدة من أجل تحسين اقتصاد الدولة، والذي تمثّل بتطور الزراعة والحرف والتجارة حيث كانت النظرة الاجتماعية إلى اهل الصنائع في هذه المدة نظرة محترمة باعتبار الحرف من الضروريات الاجتماعية، فضلاً عن رخص الأسعار[٢]، وفيما يخص بغداد فمن الطبيعي أن تتمتع بهذا النشاط بوصفها عاصمة الخلافة العباسية.

وكذلك الحال بالنسبة للموصل، فقد أصبحت في العصر الاتابكي مدينة عامرة بالسكان رائجة التجارة كثيرة المرافق، ونشطت فيها حركة البناء، فشُيدت المدارس والمساجد ودور الحديث، والربط، ونمت الزراعة والصناعة، وكذلك نشطت التجارة[٣]، بسبب الهدوء والاستقرار السياسي الذي تمتعت به

---

(١) عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ٱبن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط١، مطبعة لجنة البيان العربي (د.م:١٩٦٢م)، ٣/٩٢٤، ٩٩٠؛ أحمد، عبد الجبار حامد، الحياة العلمية في الموصل في عصر الاتابكة (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، (جامعة الموصل: ١٩٨٦م)، ص٤٩.

(٢) للتفاصيل ينظر: فهد، بدري محمد، تأريخ العراق في العصر العباسي الأخير (٥٥٢-٦٥٦هـ/١١٥٧-١٢٥٨م)، مطبعة الإرشاد، (بغداد: ١٩٧٣م)، ص٣٤٨- ٣٤٩، ٣٦٠، ٣٧٣- ٣٧٤، ٣٨٠- ٣٨١.

(٣) للتفاصيل ينظر: الجميلي، دولة الاتابكة في الموصل، ص٢٦٤-٢٦٥.

وبفضل سياسة الأمراء الاتابكة التي أدت إلى تطورها الاقتصادي[1]، باستثناء بعض الفترات التي تأثر بها اقتصاد المدينة من جرّاء حالات معينة كما حدث عندما اشتد الغلاء بالموصل سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) وسنة (٦٢٤هـ/١٢٢٧م)[2].

فلو قارنا بين ما كانت عليه من التدهور قبل العصر الاتابكي وما حصل بها من إعمار بعد أن تسلمها الاتابكة، لرأينا أن الفرق واسع بين العصرين[3]، وقد وصفها ٱبن الأثير بأنها كانت خراباً وغيرَ معمورة فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة، وكان الجامع العتيق وجميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة. وبعد تولي عماد الدين زنكي حكم الموصل سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) كثر العمران حتى لقد ذهبت كثير من المقابر وبنيت دور وهو الذي أمر ببناء دور المملكة[4].

وفيما يخص الزراعة فكانت الموصل قبل العصر الاتابكي قليلة الفاكهة، فكان الذي يبيع الفاكهة يستخدم مقراضاً يقص به العنب عند وزنه لقلته، فلما عمرت الموصل وكثرت فيها البساتين أصبحت أكثر البلاد فاكهة بحيث ان المحصول القديم يبقى حتى مجيء المحصول الجديد[5]. ويرتبط بتطور الزراعة وجود الأسواق التجارية لتصريف المحاصيل الزراعية فقد نمت

---

(١) رشاد، عبد المنعم، المظاهر الحضارية في الموصل في عهد الادارة الاتابكية، موسوعة الموصل الحضارية، ط٢، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل: ١٩٩٢م)، ١٩٤/٢.

(٢) ٱبن الاثير، الكامل، ٤٥٧/١٠، ٤٧٤.

(٣) أحمد، الحياة العلمية في الموصل، ص٤٩؛

(٤) التأريخ الباهر، ص٧٧؛ ومحلة الطبالين: تقع قرب الجامع الأموي، وكانوا يصنعون فيها الدفوف والطبول، وكانت هذه المحلة تمارس هذه الحرفة إلى أمد قريب، ينظر: الديوه جي، تأريخ الموصل، ١٨١/١.

(٥) ٱبن الأثير، التاريخ الباهر، ص٧٨.

هي الأخرى وتطورت حتى ان آبن جبير عندما زارها سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) كان معجباً بقيساريتها، وشبه تلك القيسارية بالخان العظيم تنغلق عليها أبواب من حديد وفي داخلها دكاكين وبيوت بعضها على بعض[١] ممّا يدل على نشاط الحركة التجارية فيها.

كما كان لموقعها الإستراتيجي دور إضافي في تطور نشاطها التجاري فهي قاعدة الجزيرة الفراتية لذلك وصفها ياقوت الحموي بقوله: ((ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى آذربيجان، وكثيراً ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لان القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها)) [٢]، ممّا جعلها تتمتع بموقع مهم على طرق المواصلات والتجارة.

كما ازدهرت الحياة الاقتصادية في اربل ايضاً، وقد عرفت منذ القدم بإنتاجها الزراعي الوفير[٣]، وبحركتها التجارية النشطة إذ تشير المصادر التأريخية إلى نموها وتطورها بسبب تعاظم شأنها واستقرار وضعها السياسي ولاسيما في عهد حاكمها مظفر الدين كوكبري، الذي أصبح النشاط التجاري في أوجه بحيث أصبحت تُتاجر حتى مع البلاد البعيدة[٤].

وسعى الأيوبيون في بلاد الشام إلى تطوير اقتصاد هذه البلاد لاسيما في حلب ودمشق، فقد شهدت حلب ازدهاراً اقتصادياً ملحوظاً باستثناء بعض الفترات التي تتمثل بالصراعات العسكرية التي كانت قائمة بين أطراف الأسرة الأيوبية وما تبعها من رصد الأموال اللازمة لها، والفضل في ذلك يعود إلى السياسة الاقتصادية التي انتهجها الملوك الأيوبيون والقائمة على الحفاظ على

---

(١) أبو الحسين محمد بن أحمد، رحلة آبن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٦٤م)، ص١٦٨.

(٢) معجم البلدان، ٢٢٣/٥.

(٣) حسين، اربيل في العهد الاتابكي، ص٢٣٨.

(٤) آبن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٩٢/٢؛ حسين، اربيل في العهد الاتابكي، ص٣٤٠.

النشاط الاقتصادي بما يؤمن استمرار الحياة الاقتصادية فيها بشكل طبيعي. ومن أبعاد تلك السياسة محاولة حكامها تقليل الضرائب والمكوس [١]، كما قاموا بتوفير مستلزمات النشاط الاقتصادي من خلال بناء الأسواق والخانات والحمامات [٢]، وتوفير الأمن والاستقرار للتجار وبما يؤدي إلى استمرار نشاطهم[٣].

يتضح ممّا سبق أن عصر ٱبن الشّعّار كان مزدهراً اقتصادياً، وهذا الازدهار لاشك أنه يؤدي إلى رخص الأسعار الذي انعكس على رخص مواد الكتابة من أقلام وأحبار وأوراق فضلاً عن رخص المواد الغذائية، وبالتالي فإنَّ المدينة المتطورة اقتصادياً تكون مركز جذب للعلماء مِن مختلف المدن الإسلامية. ولاشك أن هذا التطور الاقتصادي في المدن المذكورة آنفاً قد وفر لابن الشّعّار أسلوب معيشة جيد، لكي يقيم فيها ويلتقي بعلمائها ومثقفيها ويبدع في كتابه (قلائد الجمان).

ثالثاً- الحياة العلمية

يمكن النظر إلى الحياة العلمية والأثر الذي تركته في عصر ٱبن الشّعّار استناداً لما ذكره ٱبن خلدون مِنّ أن أحوال الناس تتبع نحلتهم من المعاش[٤]، أي كلما كان معاشهم جيداً كانت أحوالهم مستقرة والعكس صحيح،

---

(١) عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص٧٧.

(٢) ٱبن شداد، الأعلاق الخطيرة، تحقيق: دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق: ١٩٥٣م) ج١ق١/١٤، ٥٦، ١٤٩، ١٣٠؛ عيسى، حلب في العهد الايوبي، ص٧٧.

(٣) عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص٧٧.

(٤) عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتأريخ ٱبن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٧٩م)، ٣٦٢/١.

وهذا يترتب عليه انصراف الناس إلى البحث عن العلم والمعرفة والإسهام في بناء مؤسسات تعليمية كالمدارس ودور الحديث ودور القرآن، فضلاً عن مؤسسات تعليمية أخرى.

وتأسيساً على ما ورد آنفاً في الحديث عن الأوضاع الاقتصادية في المناطق التي كان يتردد عليها ٱبن الشّعار، يمكن القول أن العصر العباسي الأخير شهد تطوراً علمياً في مختلف مجالات المعرفة وأصبحت بغداد مركزاً للإشعاع الحضاري، فقد أنشئت فيها المؤسسات التعليمية من دور علم ومدارس[١]، كما حصل في عهد الخليفة المستنصر بالله الذي اشتهر بإنشاء المساجد والمشاهد والربط، كما أنشئت في عهده ومن قبل كبار رجال دولته المدارس في بغداد والبصرة وواسط وغيرها من المدن[٢]، كالمدرسة الشرابية التي أنشئت سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) وتسمى ايضاً الشرفية أو الاقبالية نسبة إلى منشئها شرف الدين أبو الفضائل إقبال الشرابي (ت٦٥٣هـ/١٢٥٥م) احد قادة الجيوش العباسية في عهدي الخليفة المستنصر بالله والمستعصم بالله[٣]. والمدرسة المجاهدية التي أُنشئت سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) بالجانب الشرقي من بغداد من قبل أمير الأمراء مجد الدين ايبك بن عبد الله المستنصري (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، واستمرت حافلة بالطلبة إلى أواخر القرن (الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد) [٤]. والمدرسة التي أنشأها الأمير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرومي الناصر (ت٦٤٠هـ/١٢٤٢م) قبل سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) وذلك عند ولايته للبصرة بين سنتي (٦٠٧هـ/١٢١٠م) حتى

(١) الرويشدي، إمارة الموصل، ص١٨٢.

(٢) الياسين، الحياة الفكرية في العراق، ص٦٦.

(٣) ٱبن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٤.

(٤) ٱبن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص١٢٨؛ رؤوف، عماد عبد السلام، مدارس بغداد في العصر العباسي، ط١، مطبعة دار البصري، (بغداد: ١٩٦٦م)، ص١٩٥.

سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) [١]. والمدرسة الشرقية الشرابية التي أمر بإنشائها شرف الدين أبو الفضائل الشرابي بالجانب الشرقي من واسط على دجلة والتي فتحت سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)[٢]، إلا أن أعظم آثار الخليفة المستنصر بالله وأجلها المدرسة المستنصرية التي أنشأها سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) [٣]. والتي قيل عنها ((مدرسة ما بني على وجه الأرض أحسن منها ولا أكثر منها وقوفاً)) [٤].

كما وظفّت المراكز التعليمية لعقد الحلقات النقاشية، فالمناقشات التي كانت تحدث بين رجال العلم لها أثر كبير في تقدم الحركة العلمية، ذلك أنها شجعت العلماء على مواصلة البحث والدرس وإعداد أنفسهم لتلك المجالس[٥].

وبذلك أصبحت بغداد قبلة العالم الإسلامي يؤمها العلماء من كل حدب وصوب، وكان تأثيرها العلمي يظهر في الحواضر الإسلامية الأخرى كدمشق والقاهرة والأندلس عن طريق العلماء والفقهاء والمدرسين الذين تلقوا معارفهم في بغداد[٦] من خلال رحلاتهم العلمية التي كانوا يقومون بها دون أي أي حواجز تفصل بين مدن العالم الإسلامي[٧].

وقد تعددت المراكز العلمية التي نافست بغداد في تلك المدة على مكانتها ودورها العلمي مثل الموصل وحلب ودمشق، فقد غدت الموصل في

---

(١) آبن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص١٨١.

(٢) نفسه، ص٧٦.

(٣) نفسه، ص٥٣.

(٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تأريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة منير، (بغداد: ١٩٧٩م)، ص٤٦١.

(٥) جرجيس، مها سعيد حميد، الدور التعليمي للأسر العلمية في الموصل من القرن الخامس إلى نهاية القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، (جامعة الموصل: ٢٠٠١م)، ص٧٦.

(٦) الرويشدي، إمارة الموصل، ص١٨٢.

(٧) جرجيس، الدور التعليمي للأسر العلمية، ص٧٦.

القرنين السادس والسابع للهجرة أحد المراكز الثقافية والعلمية المهمة، وأصبحت لا تقل أهمية ونشاطاً عن مراكز الثقافة الأخرى في بغداد ودمشق والقاهرة[١]، وقد توفرت عوامل عديدة تظافرت في دعم هذا الازدهار منها تمتعها ببعض الاستقرار السياسي، فضلاً عن ذلك فقد كان للدولة الاتابكية دورها في تشجيع العلم والمعرفة والاهتمام بالعلماء والأدباء، كما اهتموا بتشييد المعاهد العلمية المختلفة من مدارس ودور حديث وربط وبيمارستانات. وقد عزز الاتابكة هذه النهضة العلمية بما أغدقوا على العلماء من العطايا الكثيرة، وبما كانوا يقدمونه من التسهيلات لطلاب العلم الذين يدرسون في مدارسهم[٢]. فقد اهتم عماد الدين زنكي بالعلماء والأدباء وقربهم اليه واعتمد عليهم في الأمور الإدارية، فضلاً عن مهامهم القضائية والعلمية، ومنهم ابناء الشهرزوري الذين تولوا مناصب سياسية وقضائية مهمة، وقد شغل أبناء هذه الأسرة مناصب كثيرة بالموصل والشام والجزيرة، وكانت لهم مكانة كبيرة عند الناس بعامة والعلماء والفقهاء بخاصة[٣]. وكذلك سار أولاد عماد الدين زنكي على النهج ذاته في تشجيع الحركة العلمية في الموصل، منهم نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) حاكم بلاد الشام الذي قرّب اليه القاضي كمال الدين الشهرزوري (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م) والذي أصبح بمثابة الوزير والسفير إلى الخليفة العباسي في بغداد والمدن العربية الإسلامية الأخرى[٤]. كذلك نور الدين ارسلان شاه الأول بن عز الدين مسعود الذي اسس المدرسة النورية

(١) الرويشدي، إمارة الموصل، ص١٨٢.

(٢) الديوه جي، سعيد، الموصل في العهد الاتابكي، مطبعة شفيق، (بغداد: ١٩٥٨م)، ص٩٥-٩٦.

(٣) أحمد، عبد الجبار حامد، (أبناء الشهرزوري ودورهم السياسي والقضائي والعلمي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، (الموصل: ١٩٨٨م)، ع١٨/١١٤-١١٥.

(٤) أحمد، (ابناء الشهرزوري)، مجلة آداب الرافدين، ع١٨/١١٨.

مقابل دار المملكة للشافعية[١]، وكان من مظاهر اهتمامه بالعلماء، ترحيبه بهم عند قدومهم اليه تقديراً لجهودهم العلمية[٢]. وقام الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين ارسلان شاه الأول ببناء المدرسة القاهرية للشافعية أيضاً[٣].

وحظي النشاط الثقافي والعلمي في الموصل في فترة حكم بدر الدين لؤلؤ باهتمامه ورعايته، فأخذ بيد العلماء والفقهاء وبذل لهم الأموال الكافية وسد نفقاتهم المختلفة، وأنشأ المدرسة البدرية المطلة على دجلة، وعيّن بها المدرسين، فوفد الطلاب إلى الموصل من البلاد الأخرى للتفقه والتعلم والدراسة. ولم يقتصر نشاط بدر الدين لؤلؤ على ذلك بل كان يتخذ لنفسه الندماء من العلماء والأدباء والشعراء ويقربهم من بلاطه ويأمرهم بملازمة مجلسه الذي كانت تجري فيه المناظرات وقراءة الكتب التي تحوي صنوفاً من المعرفة[٤].

ولم يقتصر بناء المؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس على الملوك الاتابكة فحسب، بل سار على هذا النهج عددٌ من كبار رجال الدولة الاتابكية[٥]، فضلاً عن العلماء الذين يشكلون عنصراً رئيساً في المجتمع، فقد أنشأ مثلاً كمال الدين أبو الكرم محمد بن علي بن مهاجر (ت٦٣٤هـ/١٢٣٦م) مسجداً بسكة أبي نجيح بالموصل، ويظهر أن هذا المسجد ساهم في تطور الحركة العلمية بالموصل إذ دُرست فيه مختلف العلوم

---

(١) ابن الاثير، التأريخ الباهر، ص٢٠١.

(٢) أحمد، الحياة العلمية في الموصل، ص٦٨.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٠٥/٣؛ ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين البغدادي، تلخيص مجمع الاداب في معجم الألقاب، تحقيق: مصطفى جواد، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم، ج٤ق٣٥٩/١.

(٤) الرويشدي، إمارة الموصل، ص١٨٢-١٨٣.

(٥) الجميلي، دولة الاتابكة في الموصل، ص٣١٨.

الدينية والأدبية، فضلاً عن حركة التأليف الموجودة فيه، فكان العلماء يتزاحمون عليه[١]. كما أنشأ القاضي كمال الدين الشهرزوري (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م) المدرسة الكمالية القضوية (٥٣٥هـ/١١٤٠م) لتدريس الفقه الشافعي[٢]. وأنشأ زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) والد الملك مظفر الدين كوكبري صاحب اربل المدرسة الكمالية وقد سميت بالكمالية نسبة إلى كمال الدين ابن يونس بن منعة (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م) لطول إقامته بها[٣]. كذلك انشأ أبو الثناء محمود بن مودود بن محمود بن بلدجي الموصلي (ت٦٢٣هـ/١٢٢٦م) مدرسة أبناء بلدجي التي كان لها أهمية كبيرة في الموصل[٤].

ولقي أرباب العلوم ولاسيما الفقهاء والمحدثين منهم في اربل باهتمام ورعاية حاكمها مظفر الدين كوكبري الذي كان يأخذ بيدهم ولا يضيع قصدهم[٥]، فظهر فيها نخبة من رجال العلم الذين برزوا في مختلف أوجه المعرفة كالتفسير والحديث والفقه والنحو والشعر[٦]، كما انه شجّع الثقافة والعلم

---

(١) أحمد، الحياة العلمية، ص١٠٨-١٠٩؛ وسكة آبي نجيح: هي من المناطق المشهورة في الموصل، وكان فيها عدد من المدارس ودور الحديث في العصر الاتابكي كما سكنها عدد من العلماء، وتقع بين سوق الميدان الحالية ومدرسة كمال الدين بن يونس (جامع شيخ الشط)، ينظر: الديوه جي، الموصل في العهد الاتابكي، ص١٢٦.

(٢) آبن كثير، البداية والنهاية، ٢١٧/١٢.

(٣) آبن خلكان، وفيات الأعيان، ١٥٦/٣؛ العباجي، ميسون ذنون، (العالم الموسوعي كمال الدين موسى بن يونس بن منعة الموصلي (ت٦٣٩هـ/١٢٤٢م) (دراسة في سيرته العلمية))، مجلة دراسات موصلية، (الموصل: ٢٠٠٩م)، ع٦٣/٢٤.

(٤) معروف، ناجي، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ، مطبعة الإرشاد، (بغداد: ١٩٧٣م)، ص١٨٣-١٨٤؛ جرجيس، الدور التعليمي للأسر العلمية، ص١٠٨.

(٥) آبن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٩٢/٢.

(٦) حسين، اربيل في العهد الاتابكي، ص٢٦٨.

والعلم ببنائه المساجد والمدارس ودور الحديث، فأمست المدينة أحد المراكز الثقافية المهمة في القرن السابع الهجري، ولا أدل على ذلك من كثرة الوافدين إليها الذين زاروها لغرض التحصيل والتدريس، أو الذين جعلوا هذه المدينة مستقرهم الأخير[١].

وشهدت أيضاً بلاد الشام وبخاصة مدينتي حلب ودمشق في عصر بني أيوب نشاطاً ثقافياً، وكان لملوكها أثرٌ في ذلك، حيث كان عصرهم عصر إحياء للثقافة الإسلامية تجسد من خلال تشجيعهم للعلماء والفقهاء والشعراء ومنحهم الهبات إلى جانب ما اشتهرت به أسرتهم من تقديم خدماتها للعلم والأدب عن طريق التأليف والتصنيف وتأسيس المكتبات، فضلاً عن المجالس والمناظرات العلمية، وأسسوا المدارس ودور الحديث ووجد رواد العلم حرية الانتقال من بلد إلى آخر ممّا أتاح لهم فرصة اتساع أفقهم الثقافي[٢].

ومن مدن بلاد الشام التي شهدت النهضة العلمية، مدينة حلب حيث كان فيها نشاطٌ فكريٌ وثقافيٌ في مختلف المستويات، كما ظهرت فيها نخبٌ فكرية في شتى العلوم فضلاً عن استقطابها علماء من أرجاء الدولة العربية الإسلامية ممّا يوضح أهمية تطورها الفكري والثقافي وإسهاماتها في مختلف العلوم[٣]، وسبب هذا التطور هو اهتمام ملوك حلب وأمرائها بالحياة الفكرية من خلال مساهمتهم في تشجيع العلم والعلماء لإدراكهم ان النخبة الفكرية تمثل عناصر تأثير ايجابي في المجتمع الحلبي[٤]. وكان اول هؤلاء الملوك الملك الناصر صلاح الدين الذي حرص على استقطاب العلماء اليه ومجالستهم[٥].

---

(١) نفسه، ص٢٥٤-٢٥٥.

(٢) التكريتي، محمود ياسين، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة (٥٦٤-٦٤٨هـ/١١٦٨-١٢٥٠م)، دار الرشيد للنشر، (بغداد: ١٩٨١م)، ص٤٠٦.

(٣) عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص١٥١.

(٤) عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص١٢٤.

(٥) نفسه، ص١٢٢.

وسار الملك الظاهر غازي على نهج والده صلاح الدين، ففي عهده تم بناء مدرستين في حلب[١]، واتبعها بمدرسة ثالثة نصّب الشيخ ابا بكر الهروي (ت٦١١هـ/١٢١٤م) مدرساً فيها[٢]. كما عمل على استقطاب العلماء إلى حلب وتخصيص الجرايات المالية لهم بما يؤمن لهم حياةً وظروفاً مناسبة إلى جانب استقباله الشعراء واكرامهم[٣].

وفضلاً عن ذلك فقد أسهم العلماء في إنشاء المؤسسات التعليمية في حلب كالمدارس مثل المدرسة العصرونية، وهي مدرسة قديمة كبيرة منسوبة إلى الفقيه شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م)، ويرجعُ بناؤها إلى أيام سلطان الشام ومصر واليمن نور الدين محمود بن زنكي، وقد أصبحت مؤسسة تعليمية تقدم الخدمات والسكن والراتب لمنتسبيها من الطلاب والفقهاء وذلك عام (٥٥٠هـ/١١٥٥م) [٤]، والمعروف أن نور الدين أنشأ لهذا الفقيه مدارس في أرجاء مملكته بدمشق وحماة وحمص وبعلبك فضلاً عن حلب، وعرفت المدارس التي أُنشئت له بالمدارس العصرونية نسبة اليه[٥]. والمدرسة الصاحبية التي شيدها القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) بالقرب من باب العراق[٦]. والمدرسة الدقاقية التي قام بإنشائها مهذب الدين علي بن فضل الله ٱبن الدقاق سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) [٧]. وغير ذلك من المدارس.

---

(١) ٱبن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١ق١/١٠٣، ١٠٧.

(٢) ٱبن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/١٦٥.

(٣) عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص١٢٢-١٢٣.

(٤) ٱبن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١ق١/٩٨؛ جودة، صادق أحمد داؤد، المدارس العصرونية في بلاد الشام، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٩٨٦م)، ص١٦٢.

(٥) بدوي، أحمد أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مطبعة نهضة مصر، (القاهرة: د.ت)، ص٧٠-٧١.

(٦) ٱبن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/٤٥٦.

(٧) ٱبن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١ق١/١٢٠؛ عيسى، حلب في العهد الأيوبي، ص١١٢.

وحظيت دمشق هي الأخرى بمكانة ثقافية ممتازة فمن ملوكها الذين أسهموا بالنهضة الفكرية الملك العادل الذي حكم ما بين (٥٩٢-٦١٥هـ/١١٩٥-١٢١٨م)، وقد انشأ عدداً من المدارس، غير ان إسهاماته كانت قليلة لانصرافه إلى الحياة السياسية وتثبيت دعائم العرش له ولاولاده الذين نهضوا بالعلم وأخذوا منه بأوفى نصيب[١]. والملك المعظم عيسى الذي حكم ما بين (٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨-١٢٢٦م) كان عالماً فقيهاً نحوياً لغوياً، وقد أسهم في إنشاء المدارس بالقدس ودمشق. وكان الملك الناصر صلاح الدين داؤد الذي حكم ما بين (٦٢٤-٦٢٦هـ/١٢٢٦-١٢٢٨م) كأبيه الملك المعظم عيسى يحب العلم ويقدم اهله[٢]. اما الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب الذي حكم ما بين (٦٢٦-٦٣٤هـ/١٢٢٨-١٢٣٦م) فقد بنى دار الحديث الاشرفية بدمشق[٣]. وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي حكم بين (٦٣٦-٦٣٧هـ/١٢٣٨-١٢٣٩م) مع عدم ميله إلى العلم ولا مطالعة الكتب الا انه كان يجري على العلماء المعاليم والجرايات من غير أن يخالطهم كما لم يخالط غيرهم لمحبته إلى العزلة ومداومته على الوقار والسكون[٤].

وكان لرجال العلم والدولة في دمشق دورٌ في تطور العلم والمعرفة فيها من خلال مشاركتهم في بناء المؤسسات التعليمية كالمدارس مثل المدرسة التقوية التي تعد من اجل مدارس دمشق التي بناها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الذي حكم ما بين سنة (٥٧٤-٥٨٧هـ/١١٧٨-

---

(١) الدباغ، عبد اللطيف البغدادي دراسة في نصوصه، ص١٠-١١.

(٢) بدوي، الحياة العقلية، ص٨-٩.

(٣) النعيمي، عبد القادر بن محمد، الدارس في تأريخ المدارس، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٠م)، ٣٦/١.

(٤) بدوي، الحياة العقلية، ص٨-٩؛ والجرايات هي راتب أو وظيفة دائمة. ينظر: دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية: محمد سليم النعيمي، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٠م)، ٢٠٠/٢.

١١٩١م) وقد بناها سنة (٥٧٤هـ/١١٧٨م) ودَرّس بها جلة من العلماء[١]، والمدرسة الرواحية التي بناها التاجر زكي الدين أبو القاسم المعروف بابن رواحة الحموي (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م) نحو سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) [٢]. والمدرسة الدولعية بجيرون التي أنشأها الخطيب جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن زيد التغلبي الأرقمي الدولعي (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م) [٣].

يتضح ممّا سبق ان هذا التطور العلمي في المدن التي ذكرت آنفاً جعلها مركز جذب للعلماء ممّا حفّز آبن الشّعّار على التردد إليها لكي ينهل من علمائها، فضلاً عن إقامته علاقات علمية مع مثقفيها، ممّا حدا به أن يترجم لأعلامها، ويجمع أخبارهم ويسلط الضوء على من وجد فيها، فضلاً عن تدوينه أخبار مرافقها التعليمية، ممّا جعل من ذلك مادة غزيرة في كتابة (قلائد الجمان) سيتم الكشف عنها في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ١٦٢/١-١٦٣؛ بدوي، الحياة العقلية، ص٦٣.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ١٩٩/١؛ علي، محمد كرد، خطط الشام، ط٢، مطابع دار القلم، (بيروت: ١٩٧٢م)، ٧٩/٦.

(٣) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، ط١١، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، (بيروت: ٢٠٠١م)، ٢٥/٢٣؛ وجيرون من أبواب الجامع الأموي بدمشق وهو الباب الشرقي منه، ينظر: الحموي، معجم البلدان، ١٩٩/٢.